January Revolution And Freedom Of The Media

الفصل الرابع

حوارات عربية وأفريقية

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول

ثورات الربيع العربي في عيون الأفارقة

فى إطار مشاركتى فى أعمال المؤتمر التاسع عشر للرابطة الدولية للإعلام الذى عقد بمدينة ديربان – جنوب أفريقيا دارت العديد من الحوارات والمناقشات عن ثورة يناير المصرية. وقد بدأت هذه الرابطة نشاطها عام ١٩٧٦ بمجموعة محدودة من أساتذة الإعلام المرموقين فى الغرب وضمت عشرات الباحثين والأساتذة واتسعت على مر السنين وأصبحت تضم حالياً عدة مئات من مختلف الجنسيات وقد أتيح لى الانضمام لهذه الرابطة عام ١٩٨٢ وتعلمت الكثير من خلال مشاركتى فى الأنشطة العلمية الجماعية التى أنجزت بفضل مساندة منظمة اليونسكو وبعض المنظمات غير الحكومية وكان نظامها فى البداية يقضى بعقد مؤتمر عام كل سنتين فى إحدى العواصم الرأسمالية والاشتراكية والعالم الثالث ثم تغير هذا النظام بعد سقوط الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩.

وأصبح يقضى بعقد المؤتمر مرة فى إحدى دول الشمال والأخرى فى دولة جنوبية ويتكون هيكلها التنظيمى من مجلس تنفيذى وجمعية عمومية ويقوم على الانتخاب الحر المباشر وبحكم معاصرتى لعدة أجيال بهذه الرابطة حيث كان تمثيل دول

الجنوب ضئيلاً لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة خصوصاً من أفريقيا والعالم العربى وقد بدأ هذا العدد يتزايد مع ظهور أجيال جديدة من الباحثين الإعلاميين وكان من أبرز ثمار هذا التغيير ازدياد أعداد المشاركين من الباحثين العرب والمصريين علاوة على المشاركين الأفارقة. وقد اختيرت مدينة ديربان لإقامة المؤتمر الأخير للرابطة وشارك الوفد المصرى بعدة أوراق بحثية متميزة عن ثورة يناير وصورة الإسلام فى الإعلام الغربى واقتصاديات الإعلام العربى وصورة المرأة العربية فى الإعلام الغربى. ورغم تزايد أعداد المشاركين العرب فى الأنشطة العلمية للمؤتمر إلا أن الجمعية العمومية للرابطة لم تساند الاقتراح الذى قدمته عن ضرورة إدراج اللغة العربية إلى اللغات المستخدمة فى الرابطة والتى تنحصر فى الإنجليزية والفرنسية ثم أضيف إليها الأسبانية. ولعل أبرز ما أثار انتباهى فى مؤتمر ديربان توارى العديد من الوجوه العلمية التى شاركت فى تأسيس وترسيخ المكانة الدولية للرابطة وأذكر منهم البروفيسور جيمس هالوران (بريطانى) والبروفيسور هربرت شيللر (أمريكى) ومسز بيجى (بريطانية) وبريدا بافليك (يوغوسلافيا) بروفيسور ايبين (هندى) وغيرهم كثيرون.

وبقدر ما أسعدنى تزايد أعداد الوجوه الشابه من الأجيال الجديدة من الباحثين العرب والأفارقة إلا أن ذلك لم يحل دون إحساسى ببعض الحزن بسبب توارى واختفاء العديد من القامات العلمية التى شاركت فى تأسيس وترسيخ المكانة الدولية للرابطة.

كانت الرحلة من القاهرة إلى ديربان طويلة وشاقة استغرقت ١٥ ساعة طيران فقد اخترقنا القارة الأفريقية من شمالها إلى أقصى جنوبها على مرحلتين أولهما جوهانسبرج على متن مصر للطيران ثم ديربان بالطيران الداخلى. كانت هذه زيارتى السابعة لجنوب أفريقيا والثانية لديربان لم تتح لنا ظروف المدينة (بسبب انعدام الأمن) أن نستمتع بالتجول فى أنحائها أو التواصل مع أهلها من الأفارقة وغيرهم فضلاً عن كثافة البرامج والجلسات التى ازدحم بها المؤتمر وكان عنوانه

(الحوارات بين الشمال والجنوب).

وتتميز ديربان بتعدد الأجناس من أفارقة وأوربيين وأسيويين وتتحول هذه المدينة إلى نجفة كبيرة مضيئة فى المساء ولكن تخلو شوارعها من المارة عكس القاهرة المنورة بأهلها. وقد تميز المؤتمر بدقة التنظيم وصرامة المواعيد وصعوبة التنقل داخل مبانى جامعة الناتال زولو التى عقد بها المؤتمر علاوة على غلاء أسعار الكتب بالمعرض الذى أقيم على هامش المؤتمر. وكان إصرار الناشرين على قبول العملة المحلية (الراند) ورفض العملات الأجنبية أمراً مثيراً للإعجاب والتقدير بسبب انتهاج الحكومة الوطنية فى جنوب أفريقيا لسياسة نقدية حكيمة تستهدف تثبيت قيمة العملة الوطنية فى مواجهة العملات الأجنبية ولم يتوقف ذهنى عن المقارنة بين سياسات التخبط المالى والنقدى فى مصرنا الغالية الأمر الذى أدى إلى تدهور العملة المصرية وإهدار ثروتنا بلا مبرر سوى جهل وسوء إدارة وجشع ولاة الأمر فى بلادنا علاوة على انبطاحهم وخضوعهم لسطوة الدولار الأمريكى.

هذا وقد شغلت ثورة يناير المصرية بؤرة الاهتمام فى جميع الحوارات التى دارت مع الرفاق من الباحثين الأفارقة والأجانب. كانت المقارنة دائماً بين انتفاضات شعب جنوب أفريقيا وبين انتفاضة ميدان التحرير التى اعتبرها الكثيرون خطوة هامة على طريق التغيير الشامل ليس فى مصر فحسب بل فى أفريقيا والعالم العربى.

أثار انتباهى وجود ذلك الزخم الذى اتسم به نشاط الباحثين الشبان والشيوخ من ذوى التوجهات الإسلامية والذى تجسد فى إقبالهم على الجلسات المخصصة لمناقشة مستقبل التيارات الإسلامية ودورها فى الثورات العربية. وقد استضافتنى مع زميل سودانى إذاعة الأنصار التى تديرها الجماعة الإسلامية فى ديربان حيث تم إجراء حوارات حول الإعلام المصرى بعد ثورة يناير ودور قناة الجزيرة فى بث أحداث الثورة. ويدير هذه الإذاعة نخبة متميزة من الإسلاميين والإسلاميات

المنحدرين من أصول هندية.

انتفاضة وليست ثورة:

فى إطار احتفال المؤتمر بعيد ميلاد نيلسون مانديلا الرابع والتسعين دارت المناقشات والحوارات حول الدور الذى قام به مانديلا ورفاقه فى حزب المؤتمر الأفريقى من أجل إنهاء الحكم العنصرى واستعادة الحقوق الوطنية المشروعة لشعب جنوب أفريقيا. أجمع فريق الباحثين الذين أحاطوا بنا فى إحدى الحدائق الصغيرة بجامعة الناتال على أن مانديلا قد أدار مفاوضات الاستقلال بصبر وحكمة غير مسبوقة فى تاريخ الثورات الوطنية ولكن الصعوبة الأكبر التى واجهته كانت مع رفاق نضاله فى حزب المؤتمر الأفريقى والذين شكلوا تياراً للمعارضة ولكن استطاع مانديلا بعمق بصيرته ورؤيته المستقبلية أن يقنعهم بوجهة نظره مؤكداً على ضرورة طى صفحة الصراعات الدموية التى استمرت أكثر من ٣٥٠ عاماً بين شعب جنوب أفريقيا من الأفارقة وبين محتكرى النفوذ السياسى والاقتصادى من البيض إذ تعد الخطوة الأولى الحاسمة لنقل السلطة إلى الأفارقة كى تصبح جنوب أفريقيا وطناً لجميع سكانها وكى يتاح للأفارقة أن يشاركوا فى صنع القرارات الوطنية ويواصلوا نضالهم السلمى من أجل الحصول على سائر حقوقهم فى الصحة والتعليم والمشاركة السياسية. هنا انبرى أحد المثقفين الإسلاميين المنحدرين من أصل هندى قائلاً: (أن موقف مانديلا يذكرنا بموقف الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما عاد من موقعة أُحد وأدلى بقولته الشهيرة: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر كى نواجه الجهاد الأكبر» وكان يقصد به جهاد النفس الأمارة بالسوء) ثم استكمل الحوار البروفسور توماسيلى رئيس مركز الدراسات الثقافية والعضو بحزب المؤتمر الأفريقى رغم انتمائه للأقلية البيضاء قال: (إن الثورة والتغيير لا يتحقق من جولة واحدة بل يحتاج إلى جولات متوالية تختلف أساليبها وآليات تحقيقها باختلاف الظروف والأحوال).

انتحيت جانباً مع مجموعة من العلماء الاجتماعيين القادمين من مختلف

أنحاء القارة الأفريقية واستمر الجدل والحوار الذى تركز على المقارنة بين ثورات الربيع العربى التى يعتبرها الأفارقة انتفاضات سوف تمهد لثورات قادمة وانتفاضة سويتو التى اندلعت عام ١٩٧٦ وكانت الشرارة الأولى التى أنذرت العالم بانتقال زمام الثورة إلى أيدى الجماهير متجاوزة القيادات التقليدية.

يرى معظم العلماء الأفارقة أن انتفاضة ميدان التحرير أنعشت أمال المعارضة الأفريقية وأثارت مخاوف الحكومات الأفريقية وخلافاً للمراقبين الأوربيين الذين اعتبروا انتفاضة ميدان التحرير امتداداً للثورات البرتغالية فى شرق أوروبا بعد سقوط الاتحاد السوفيتى يضع البروفسور مامدانى هذه الانتفاضة فى سياق مختلف عن السياق الأوربى إذ يقارنها بانتفاضة سويتو فى جنوب أفريقيا (١٩٧٦) والتى شكلت نقطة تحول أساسية فى نضال شعب جنوب أفريقيا ففى عام ١٩٧٣ بدأت عدة إضرابات تلقائية فى مدينة ديربان كانت الشرارة التى قادت إلى تشكيل النقابات ويمثل هذان الحدثان انتفاضة سويتو وإضرابات العمال فى ديربان بداية التحول فى النضال ضد النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا. لقد غيرت سويتو المسار النضالى ضد العنصرية البيضاء فى جنوب أفريقيا حيث أبرزت قدرة الجماهير على الإمساك بزمام النضال متجاوزة دور النخب السياسية. ومن هنا بدأ التحول فى الفكر النضالى وأساليبه مما أتاح الفرصة لمشاركة أعداد غفيرة من الجماهير. لقد قسم النظام العنصرى الأبيض شعب جنوب أفريقيا إلى ثلاث فئات بيض وسود وملونين كما قسمهم إلى قبائل زولو وفندا وبيدى وأكهوسا ولكل منهم قوانين تحكمهم وتحول دون توحدهم فى مواجهة الحكم العنصرى. فى هذا السياق ظهرت قيادة جديدة تمثلت فى المناضل ستيف بيكو الذى تزعم حركة الوعى الأسود وأكد أن اللون الأسود ليس سوى غطاء يغلف حالة القهر والاضطهاد التى يعانى منها السود والملونين والبيض فى جنوب أفريقيا فالقهر وحده وليس اللون أو الانتماء الدينى أو السياسى هو الذى يوحد الجماهير وأن إدراك ذلك لدى الجماهير كفيل بأن ينقل حركتهم إلى مستوى الفعل الثورى فى

مواجهة القهر بل وينهى مرحلة اعتمادهم على النخب السياسية التقليدية وكانت هذه هى الرسالة الثورية التى حمل مسؤوليتها حزب المؤتمر الأفريقى وأعلنها فى ميثاق الحرية عام ١٩٥٥ وفتحت الباب لانضمام جميع المضطهدين فى جنوب أفريقيا وأزالت الحواجز الوهمية بين السكان التى أرساها النظام العنصرى. ويواصل مامدانى حديثه قائلاً: (فى عام ١٩٧٨ أضافت انتفاضة الحجارة الفلسطينية رافداً جديداً للمبادرة الثورية الذى أرستها انتفاضة سويتو حيث قام الشباب الفلسطينى بترسيخ فكرة العنف الثورى امتداداً لما بدأه أطفال سويتو إذ واجهوا بالحجارة رصاص المحتلين الصهاينة وأعلنوا تمثيلهم للشعب المقهور) وقد جاءت انتفاضة ميدان التحرير بعد ثلاثة عقود من انتفاضة سويتو فأنعشت الذاكرة الوطنية وجسدت هذه الحقيقة. كما أكدت قدرة الأجيال الجديدة على مواجهة الاستبداد وانتهاج العنف كأسلوب للنضال. التقطت الخيط إحدى الشابات الإفريقيات قالت: (إن أبرز أوجه التشابه بين انتفاضتى سويتو وميدان التحرير يتعلق بقضية وحدة الجماهير فى مواجهة القهر. فقد أزالت سويتو الحواجز التى أرساها النظام العنصرى بين جماهير جنوب أفريقيا وبالمثل فعلت انتفاضة التحرير فى مصر إذ أزالت الحواجز الدينية والسياسية والفئوية التى رسخها نظام مبارك وأكدت وحدة الجماهير فى مواجهة القهر والفساد والاستبداد حيث جمعت العلمانيين والمتدينين وجميع الأطياف السياسية والفكرية فى لحظة تاريخية فارقة وأكدت أن سياسة التفرقة والتفتيت هى منهج سلطوى محض مارسته النظم الاستبدادية والعنصرية.

وتتشارك انتفاضة التحرير وسويتو فى ملمح آخر فقد أجبرت سويتو العالم كله على إعادة التفكير فى جوهر النضال الأفريقى إذ أكدت أنه نضال يقوم به الأفارقة من أجل استعادة حقوقهم وهويتهم وأزالت التفكير السائد لدى الغرب من استحالة أن يناضل الأفارقة لصعوبة تجمعهم فى إطار نضالى موحد. كذلك أسقطت ثورة يناير المصرية وانتفاضة ميدان التحرير الأوهام التى كان يروجها

الغرب ووسائل إعلامه عن استحالة توحد العرب حول أهداف نضالية وأن جيناتهم تحمل بذور الكراهية والتمييز ضد الآخر. ويعلق حامى المواطن الجنوب أفريقى المنحدر من أصول هندية قائلاً : (إذا كانت قوى الاستبداد والاستغلال المحلية والعالمية تسعى إلى إضعاف الجماهير من خلال تكريس بذور الانقسام والتفتيت الثقافى والدينى فإن الانتفاضات الجماهيرية تقدم البديل الثورى الذى يوحد المنقسمين. وقد تجسد ذلك فى انتفاضات الربيع العربى فى مصر وتونس وليبيا وسوريا).

وفى ختام هذه الحوارات يرى البروفيسور تاندون أننا قد نستطيع أن نتنبأ بالكوارث الطبيعية مثل الزلازل والتسونامى. ولكن لا نستطيع أن نفعل ذلك فى الأحداث السياسية لأن ذلك يتطلب خيالاً مختلفاً عما هو سائد. فالثورة الديموقراطية بدأت فى مصر. وإذا كان التغيير الديمقراطى فى جنوب أفريقيا قد استغرق عقدين كاملين بعد انتفاضة سويتو فإننى أرى أن انتفاضة التحرير فى مصر قد تسفر عن حدوث إصلاح وليست سوى خطوة على الطريق الطويل لتحقيق التغيير الثورى فى مصر. ولكن أهمية ما حدث فى مصر يكمن فى قيمته الرمزية كنضال جماهيرى يمكن أن تقتدى به سائر المجتمعات العربية والأفريقية إذ يفتح أفاقاً جديدة وفرصاً غير محدودة للتغيير وهناك الكثير من التحديات التى تواجه مصر بعد الانتفاضة.

obeikan.com

المبحث الثاني

الجزائر بين تراث الثورة وإرادة التغيير

رغم عمق وقدم علاقتى بالثورة الجزائرية منذ مشاركتى فى نهاية الخمسينيات فى المظاهرات الطلابية دفاعاً عن جميلة بوحريد وعروبة الجزائر والتى توجتها برسالة الماجستير عن صحيفة المجاهد صوت الثورة الجزائرية حيث قمت بزيارة ميدانية للولايات الجزائرية والتقيت بالمجاهدين وجمعت وثائق الثورة وقد تحقق ذلك بناء على الدعوة التى تلقيتها من الرئيس الراحل هوارى بومدين.

وقد تكررت زياراتى للجزائر للمشاركة فى مناقشة رسائل الدكتوراه لبعض طلابى الجزائريين ولكن ظل الغرب الجزائرى حلماً يداعب خيالى خصوصاً وأننى لاحظت أن هذا الجزء الهام من الوطن الجزائرى لم يأخذ حقه فى الكتابات التى أعدها الباحثون الجزائريون والعرب عن الثورة الجزائرية ولذلك لم أتردد فى قبول الدعوة التى تلقيتها من الملتقى الدولى عن تلمسان ودورها فى الحركة الوطنية الجزائرية الذى نظمه المركز الوطنى للبحوث فى عصور ما قبل التاريخ – علم الإنسان والتاريخ فى إطار الاحتفال بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠١١.

لقد نجح الملتقى فى إلقاء الضوء على التاريخ الثورى لأهالى تلمسان من خلال الأوراق البحثية والشهادات الواقعية التى أدلى بها المجاهدون الذين شاركوا فى أحداث الثورة وأولئك الذين عاصروها. وقد ألقى معظم المتحدثين كلماتهم باللغة الفرنسية وقليل منهم باللغة العربية ولما تساءلنا عن السبب رغم استشهاد مليون ونصف مليون جزائرى من أجل استعادة اللسان العربى ورغم مرور ٤٨ عاماً على استقلال الجزائر. أوضح لنا الرفاق أن جميع المتحدثين ينتمون إلى جيل ثورة التحرير ولم يتح لهم تعلم اللغة العربية ولكن الأجيال التى أتت بعد نجاح الثورة كانوا يتحدثون العربية لأنهم تعلموها فى إطار برامج التعريب التى أرستها الثورة الجزائرية.

لقد ركزت فى مداخلتى على صورة الثورة الجزائرية لدى الشباب المصرى فى الخمسينيات من القرن الماضى عندما كانت الجامعة المصرية منبراً لجميع حركات التحرر فى العالم العربى والإسلامى حيث جمعتنا صفوف الدراسة مع الرفاق الجزائريين الذين كانوا يحدثونا عن حركات الجهاد الجزائرى منذ الأمير عبد القادر عام ١٨٣٢ وثورة أحمد بو مرزاق ١٨٧٢ وكشفوا لنا عن الجروح العميقة التى أحدثها المشروع الاستعمارى الفرنسى فى بنية وكيان المجتمع الجزائرى من اتباع سياسة تبشيرية تهدف إلى القضاء على دينه ومعتقده الإسلامى مستندين إلى المقولة الزائفة: (أن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين) وكان التوجه الفرنسى يعتمد على معاداة العروبة والإسلام فسعوا بشراسة إلى محو اللغة العربية وطمس الثقافة العربية والإسلامية والترويج لفكرة أن الجزائريين مسلمون فرنسيون. كما عمدوا إلى تشويه التاريخ الجزائرى واعتبروا العنصر البربرى من أصل أوربى وحكموا عليه بأنه معاد بطبعه للعرب ودعموا ذلك ببحوث ودراسات تدثرت بالطابع العلمى مستهدفة إثبات خصوصية ولغة منطقة القبائل البربرية وعزلها عن التطور التاريخى العام للمجتمع الجزائرى.

وحارب الشعب الجزائرى سياسة التفرقة الطائفية والعنصرية برفع شعار (الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا) الذى أعلنه المجاهد الجليل عبد الحميد بن باديس الذى قام بتأسيس جمعية العلماء ١٩٣١ والتى سعت من خلال فروعها فى جميع أنحاء الوطن الجزائرى إلى تأصيل الانتماء الدينى واللغوى للشعب الجزائرى كما قامت بدور تاريخى غير مسبوق فى الحفاظ على جوهر الشخصية الجزائرية.

كنا ننتظر بلهفة صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية وكانت عبارة عن صفحتين إحداهما باللغة العربية والأخرى باللغة الفرنسية. كانت تحمل لنا أخبار الكفاح المسلح وبطولات وتضحيات الشعب الجزائرى وكنا نتداولها أثناء المظاهرات التى شاركنا فيها دفاعاً عن جميلة بوحريد وعروبة الجزائر.

ثم تحولت هذه الصحيفة إلى حلم ظل يملأ خيالى سنوات طويلة وكانت رسالة الماجستير عن صحافة الثورة الجزائرية هى الجسر الذى عبرت من خلاله إلى قلب الوطن الجزائرى عند ما توج هذا الحلم بدعوة من الرئيس الراحل هوارى بومدين وبدأت زيارتى الأولى للجزائر فى نوفمبر ١٩٦٧ حيث كانت روح الثورة وأطيافها لا تزال تغلف أجواء الجزائر والأرض والبشر والشجر.

واسترجعت مع المجاهدين ذكريات النضال المسلح فى الولايات الجزائرية الست وقصائد شاعر الثورة مفدى زكريا. كما أطلعنى المجاهدون على البيان الذى أصدرته جبهة التحرير الوطنى أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ويقول البيان: (لا ينسى أى جزائرى أن مصر الشقيقة تعرضت لعدوان بشع كانت فيه ضحية تأييدها للشعب الجزائرى المناضل ولا ينسى أى جزائرى أن انتصار الشعب المصرى فى معركة بورسعيد الخالدة ليس إلا انتصاراً لواجهة من واجهات القتال العديدة التى تجرى فى الجزائر منذ ثمانية وثلاثين شهراً وأن الشعب الجزائرى المنهمك فى معركته التحريرية الكبرى ليبعث إلى الشعب المصرى الشقيق وبطله الخالد جمال عبد الناصر بأصدق عواطف الأخوة

والتضامن وعاشت العروبة حرة خالدة وعاش العرب تحت راية الاستقلال والعزة والمجد).

لقد لمحت فى إحدى جولاتى فى الجزائر رجالاً من ذوى الأنوف المجدوعة تساءلت أجابت مرافقتى المناضلة صفية بن مهدى بأن الأنف المجدوع ليس مرضاً بل عقاباً من الثورة لمن ارتكبوا أخطاء جسيمة فى حقها لذلك قرر قادة الثورة عقاب أصحابها بجدع أنوفهم أى كسر كبريائهم وكى تظل أنوفهم المجدوعة رمزاً للعار طوال حياتهم. وعندما بحثت عن المجاهدين كى أستنطقهم وأملأ أوراقى بأقوالهم وذكرياتهم عن الثورة وللأسف وجدتهم فى مبنى خارج العاصمة يقال له دار المجاهدين القدامى فيما كان يتصدر المشهد السياسى النخبة الجزائرية التى كانت خارج الوطن أثناء الثورة ثم أسرعوا بالعودة بعد انتصار الثورة وتقلدوا المناصب والمواقع الرئيسية وقبل مغادرتى الجزائر وأثناء لقائى الأخير بالرئيس بومدين أخبرته بموضوع المجاهدين القدامى فإذ به يبادرنى بمقولة بونابرت الخالدة (الثورة يخطط لها الأذكياء ويصنع أحداثها النبلاء ويجنى ثمارها الانتهازيون).

ما أصدق هذه المقولة وما أحوجنا إلى تأملها فى هذه الحقبة المليئة بالأحداث وإرهاصات التغيير فى الوطن العربى كله.

إن أهم ما يميز ذكرى أول نوفمبر تراكم التساؤلات التى يطرحها التاريخ عن مغزى الثورة الجزائرية التى هزت الوطن العربى والإسلامى وهدمت أهم صروح الاستعمار الأوربى وفتحت طريق الأمل والخلاص أمام شعوب العالم الثالث ولكن على مدار السنوات الثمانية والأربعون منذ تحقق استقلال الجزائر لا يزال الجزائريون يكتشفون عاماً بعد عام أن الثورة التى رفعت رؤوسهم واستردت حريتهم وكرامتهم إنما هى من صنع البشر النبلاء ولكن لا يزال يجنى ثمارها صنوف أخرى من البشر يفتقرون إلى إرادة الحفاظ على تراث الثورة وتضحيات شهدائها.

هذا ولا يزال تاريخ الثورة الجزائرية يثير بين ضفتى المتوسط فى فرنسا والجزائر الكثير من الجدل حول مفهوم الذاكرة أية ذاكرة يجب الحفاظ عليها لدى الجزائريين؟ وأية ذاكرة تبقى للفرنسيين أن الجزائريين يملكون ذاكرة الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل جزائر حرة مستقلة وهذه الذاكرة لن تهدأ وتستقر إلا باعتراف الفرنسيين واعتذاراهم أما الفرنسيون فهم يصرون على إبقاء الذاكرة وقد خلت من جرائمهم ضد الشعب الجزائرى دون ندم أو اعتذار.

إننا أمام شعب ودولة ذات تراث حضارى وثقافى عريق حيث يتعانق فى ربوعها التاريخ والجغرافيا فيشكلون وطناً شامخاً وثورة عظيمة ويتحرك على أرضها ٣٥ مليونًا من البشر صنعوا مشروعات حضارية وحققوا إنجازات غير مسبوقة فى التاريخ العربى والإسلامى وسجلوا تاريخاً إقليمياً وعالمياً لا يزال يشغل مكان الصدارة فى الذاكرة القومية فالجزائر التى قامت بتسديد ديونها للعالم منذ خمس سنوات وحققت معدل نمو ٤.٥٪ علاوة على أنها ضمن عشرة دول كبرى فى تصدير الغاز والبترول ويتفاعل فى ساحاتها أربعون حزباً سياسياً يضمون مختلف ألوان الطيف من قيادات تاريخية وعلمانيين وإسلاميين وليبراليين ويساريين. لقد تنوعت هذه القوى السياسية وتضاعفت حركتها عقب مأساة انفجار ١٩٨٩ وما أسفر عنه من تداعيات بائسة أدت إلى انشطار المجتمع ما بين قديم وحداثى.

أين الجزائر التى تعلمنا من ثورتها وغنينا لشهدائها وطرحت قضايا ومفاهيم شكلت فى مجملها منارة تحررية للأوطان فى دول الجنوب ولكن فى زهوة احتفاءنا بالثورة وانشغالنا بإنجازاتها توارت الأبعاد المجتمعية الأهم والأبعد تأثيراً وأهمها إشكالية تقسيم الثورة والسلطة فلا يمكن أن نتخيل أن البطالة وأزمات الغذاء والسكن وارتفاع الأسعار قد اخترقت الوطن الجزائرى رغم ما تتمتع به من مصادر الرخاء الاقتصادى وثراء الفكر الاجتماعى وحيوية النخب السياسية.

يقول الشباب الجزائرى أنهم لم ينعموا بعد بالجزائر التى حلم بها الرجال الذين

فجروا ثورة الفاتح. لقد طرحت هذا السؤال على الفيس بوك: ماذا تقول فى الذكرى الثامنة والأربعين للاستقلال؟ لم تكن المشاركات كثيرة لكنها اتفقت فى رسم صورة قاتمة عن معاناة الشباب الجزائرى أحفاد الثورة الجزائرية مع تأكيدهم على عمق انتمائهم للثورة واعتزازهم بشهدائها وإنجازاتها. فلا شك أن الشباب الجزائرى سواء كانوا فى الجزائر أو خارجها مهاجرين غير شرعيين أو لا يفكرون فى الهجرة أساساً لا يعوزهم الإحساس الأصيل بالانتماء للثورة ولكنهم أوفياء لحاضرهم ويأملون فى أن يصنعوا منه حقبة مضيئة فى تاريخ الوطن تجعلهم جديرين حقاً بالانتماء لثورة الأجداد.

لقد عبرت الجماهير الجزائرية عن همومهم فى العديد من الاحتجاجات كما تعددت حالات إحراق الشباب لأنفسهم سابقين بو عزيزى فى تونس وخالد سعيد فى مصر كذلك طرحت النخب السياسية مواقفها من خلال جهود تنسيقية وشعارات التغيير المنظم. وفى ظل تصاعد حالة الاحتقان التى خيمت على المجتمع الجزائرى تأثراً بموجات التغيير الثورى التى اجتاحت العالم العربى وتصدرتها ثورات تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا أسرعت السلطة السياسية فى الجزائر باتخاذ بعض الإجراءات الإصلاحية التى صدرت فى شهر واحد ولم تشهدها الجزائر منذ عام ١٩٩٩. إذ قررت الحكومة إلغاء حالة الطوارئ المفروضة على البلاد منذ ١٩ عاماً وكان قد فرضها الرئيس السابق بوضياف فى فبراير ١٩٩٢ إثر إلغاء الانتخابات التشريعية التى فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ التى حلت لاحقاً الأمر الذى جر البلاد إلى حرب أهلية استمرت عقداً كاملاً وأسفرت عن مقتل ١٥٠ ألف جزائرى كذلك اتخذت الحكومة بعض الإجراءات الأخرى مثل إسقاط عقوبة السجن عن الصحفيين وإنشاء قنوات تليفزيونية وتغيير قوانين الأحزاب والانتخابات ووعود بتعديل الدستور لاحقاً ولكن ظلت المشكلات التى تمس عصب الحياة اليومية لملايين الكادحين تنتظر حلولاً جذرية مما يؤكد ما أشار إليه الأخضر إبراهيمى المعروف بتاريخه وثقله

السياسى عربياً ودولياً من أن التغيير ضرورى وممكن بل إن التغيير فى الجزائر سيحدث دون مظاهرات مليونية وأن النظام الجزائرى يملك من الإمكانيات والإرادة السياسية ما يجعله قادراً على إحداث التغيير دون حاجة إلى وقوع ثورات على شاكلة ما حدث فى تونس ومصر وليبيا.

ولكن إذا كان التغيير ممكناً بل ضرورياً وحتمياً خصوصاً وأن رياح التغيير لن تتوقف فإن هناك تساؤلات وتحديات يطرحها هذا التغيير هل هناك ثمة اتفاق على مقومات التغيير؟ وهل هناك تصور موحد لبنيته وشكله وكيفية التعامل مع التحديات التى تواجه هذا التغيير؟ كيف سيتعامل دعاه التغيير مع الانقسامات الاثنية والقبلية والطائفية والمذهبية المتجذرة فى صميم المجتمعات العربية؟ كيف سيتعامل دعاة التغيير مع إشكالية الفقر والفجوة الطبقية التى تمثل أكبر التحديات التى يواجهها العرب فى تاريخهم المعاصر؟ كيف سيتعامل التغيير مع إشكالية التخلف التنموى والتخلف العلمى المريب فرغم تضخم أعداد الجامعات إلا أن الإنتاج العلمى العربى مجتمعاً لا يتجاوز ٤٠٪ من مثيله فى إسرائيل علاوة على استشراء الفساد الذى استنزف فى نصف القرن الماضى ثلث الدخل القومى الإجمالى فهل يمكن التغيير الفعلى أن يتجاهل هذا الفساد دون التصدى لمساوئه وانعكاساته السلبية على أى نظام بديل؟ وهل يمكن تحقيق هذا التغيير دون الأخذ فى الاعتبار بنية المجتمع العربى التى يشكل الشباب أكثر من ٦٠٪ من مواطنيه وتتجاوز معدلات البطالة أكثر من ٢٥٪؟ وهل يمكن للتغيير أن يبقى المرأة العربية على تخلفها وأميتها والانتقاص من حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية خصوصاً فى ظل ارتفاع الفوارق بين الجنسين الذى يعتبر الأعلى فى العالم كما يشير تقرير التنمية البشرية ٢٠١٠.

وأية رؤية قومية سيطرحها التغيير وأية توجهات وطنية ستحدد مساره وهل سيعطى الأولوية ولو فى حدها الأدنى إلى الاتحاد بين الأقطار العربية فى مواجهة التحدى التنموى والتحدى الصهيونى وفى غياب مناخ إقليمى غير موات. هذه

الأسئلة تتحدى بل وتهدد عملية التغيير بالكامل إن لم تؤخذ فى الاعتبار. إن التحدى الكبير هنا لا يقتصر على إصلاح تركه ما بعد الاستقلال الوطنى بل يتعداه إلى ضرورة تحقيق الاستقلال بمعناه الشامل الذى لا يقتصر على التحرير السياسى بل لابد أن يستكمل بالتحرر الاجتماعى والثقافى ويسمح بظهور المواطن العربى المستقل ضميراً وعقلاً وإرادة ليكون قادراً بالفعل على تحقيق التغيير.

obeikan.com